اللواء ٢٧ أيلول ٢٠١٦

الفلسفة تجنبنا كالقهوة من الاغراق في النوم!

لو قُدر لي ان اجيب عن السؤال: «ما الفلسفة بإيجاز. لقلت: انها قهوة تحتسى وكفى!

ليست الفلسفة ديانة أو مدخراً من حكمة أو اسلوباً علاجياً أو علماً صحيحاً. انها ميدان فريد يحفز فينا الفكر!

يهبط الفكر عموماً إلى ما دون نفسه فينام وأنّى للمرء ان يجيد التفكير وقوى الوظيفة والاسرة والملذات والتعب والشيخوخة الضاغطة تتآمر كلها لتحول دون ان يُعمل ذاك المرء فكره، ثمة مسائل كبرى كمسألة الحب أو الموت أو معنى الوجود، تربكنا احياناً فنحاول سبر اغوارها، ولكننا، ما ان نمضي في البحث فيها حتى نراها تتوارى. نتعثر بلفظة أو بتجريد أو بصعوبة في الفهم، أو ان احساساً شديداً ما يخمد الشعلة الضعيفة التي تحرّك تأملنا الناشىء ثمة تسلية تعرض فجأة أو انه يترتب علينا القيام بمهمة ما أو بابتياع سلع ما، وينتهي بنا الأمر عند هذا الحد. هكذا تحتجب المشاكل الكبرى فنطفق نطمئن إلى تفكير المساء قبل الخلود إلى الفراش أو في صباح اليوم التالي، أو في يوم آخر... ولا نشعر بأننا في حالة تمكننا من مجابهة المسائل الكبرى على الرغم من انها جوهر وضعنا كبشر.

هنا يبرز دور الفلسفة عبر المطالعة أو الكلام. الفلسفة تنطوي على مذاهب ومراجع ومرجعيات وتاريخ خاص، ولكن، لا شيء من هذا، ذو شأن.

فالفلسفة لا تكتسب كمعرفة. انها في مرتبة أخرى والفيلسوف هو ذاك الذي يوقظ تفكيرنا فيما الترهات كثيراً ما تخدّره. وروعة الاشارة الفلسفية في جهلنا كيفية ركون صاحبها إليها. فقد ينسج اسطورة أو يتوسّل برهنة أو يلجأ إلى التهكم المولّد الأفكار، ونحن **لا نميل إليه لمذهبه بقدر ما نميل إليه للطريقة التي يتبعها ليدهشنا ويحفزنا على التفكير، هكذا تغدو المفاهيم** كافييناً منبهاً، والأسلوب سكراً، والتفسير ملعقة، والكتاب فنجاناً، وما يعوّل عليه هو التأثير الوجودي للفلسفة ونوعية اليقظة التي تحدثها.

يختلف الفلاسفة حول خصائص الفكر ومواضيع اخرى. يركّز ديكارت على اليقين الأول الداخلي الذي يبقى بعد شكنا في كل شيء غير مستثنين العالم وجسدنا بالذات.أنا أفكر اذاً أنا موجود. يجيبه نيتشه بأن الفكر قائم ما دام يريد ذلك وليس الأمر مرتبطاً بصاحبه. ليس «الأنا»، كما يقول ديكارت، هو شرط التفكير. فهذا افتراض محض ومجرّد ادعاء.

ليس الفلسفة على وفاق. ولكن، ليس الأمر بخلل أو نقص في ميدانها الرحب، ففي تباين الآراء يسير الفكر ويتقدّم. **الفكر هو ما احضنه في عمق أعماقي ولا يتمكن الآخرون من التكهّن به أو انتزاعه مني. ولكنه** ذو علاقة وثيقة باللغة الجماعية، ويبدو انه يتسرّب اليّ كالنيازك المتساقطة في ليلة صيف... هل ما يجري في الداخل أم في الخارج؟ هل ديكارت على صواب أم نيتشه؟ المشكلات الأساسية مشرعة الأبواب. انها اشكاليات مفتوحة تحملنا على السفر في تضاعيفها. ونقاط الوصول هنا أقل أهمية من المسار في ذاته!.

زبدة القول ان الحياة بلا فلسفة اشبه ماتكون بسبات عميق، ومراحل وجودنا التي نحقق خلالها اكتشافات فلسفية ذات شأن، هي ايضاً، بتأثير خفيّ من الفلسفة في فيزيولوجيتنا، الأكثر تحفيزاً لعمل الفكر.

د. جهاد نعمان